بوصوار نجمة

استاذة بقسم الفلسفة، جامعة مستغانم

إذ كانت المعرفة العلمية تشكل مجالا بارزا من مجالات الحضارة الإنسانية فإن الفن بدوره يقدم لنا نوعية أخرى من المعرفة يمكن تسميتها بالمعرفة الجميلة ، وهي لا تقل أهمية عن المعرفة العلمية بل تتكامل معها وتشكل نسيجا لا غنى عنه لكل حضارة ، فالفن هو مصدر المعرفة الجميلة في حياتنا ، ومن هنا تأتي أهمية دراسة الفلسفة للفن والفكر الجمالي

لقد تحدث الفلاسفة طويلا عن فلسفة الفن عند مجموعة من الفلاسفة أمثال هيدغر بينما كان من الواجب أن يعرض بالبحث أيضا لفلسفة "ارنست كاسيرر الذي يشترك معه في الانتساب للأصل الألماني ، فإذا كان هيدغر قد أشتهر في موطنه الأصلي فإن ارنست كاسيرر قد عرف على الصعيد العالمي على إثر هجرته من ألمانيا إلى أمريكا ،"[1] وإذا كان هيدغر لم يضع كتابا مستقلا في الفن "واهتم بدراسة الشعر في أكثر من كتاب فإن ارنست كاسيرر قد وجه جانبا غير قليل من اهتمامه إلى دراسة الفن فتعرض للفلسفة الجمالية في كتابه المشهور فلسفة الأشكال الرمزية

لقد نالت فلسفة كاسيرر إعجابا من طرف الأمريكيين وهذا ما جعل اهتمامهم بفلسفته بالغ الأهمية لأنهم "صادفوا فيها ملامح إنسانية جديدة ومحاولة جادة للخلاص من الحيرة التي تورطت فيها بعض الفلسفات التي اتبعت نظرة العلم الجزئية إلى المشكلات ونسيت وحدة الإنسان الذي تنبع منه كل مظاهر المعرفة والحضارات المختلفة " لذلك فقد كان كاسيرر موفقا إلى ابعد حد عندما جعل عنوان أول كتاب يكتبه " [2] مقال عن الإنسان.

إن فلسفة ارنست كاسيرر في الفن من خلال مؤلفة هذا ومن خلال مؤلفاته الأخرى "فلسفة الأشكال الرمزية " هي الميزة الرئيسية لهذه الفلسفة اذ استندت إلى مناقشة علمية دقيقة لشتى النظريات القديمة و الحديثة في الفن حيث أنها لم تحّدد إلا بمعارضتها للكثير من آراء الفلاسفة السابقين في تحديد طبيعة الظاهرة الجمالية حيث استطاعت فلسفته هذه أن تكون وليدة فهم حقيقي لطبيعة الفن والأسطورة بوصفه رافدا هاما من أهم روافد الحضارة البشرية والتي تعبر في مجملها عن الإنسان لقد قدما لنا كاسيرر من خلال هذا " تعريفا للإنسان مقررا أن أهم مايميّزه هو تلك القدرة على خلق عالم رمزي يمثل تفاعل روحه مع الواقع فهو بذلك يحاول معرفة الإنسان بالرجوع الى الأشكال الرمزية المختلفة التي بدا فيها هذا العالم في نظر الإنسان".

احتلت الأسطورة مكانة بارزة في فلسفة ارنست كاسيرر وعلى الرغم من أنها "الأسطورة" قد لقيت اهتماما من قبل بعض الفلاسفة والمفكرين وعلماء النفس والأديان منذ القرن الثامن عشر إذ إعتمد البعض على التفكير الأسطوري (الأسطورة) بوصفها تمثل التمثلات المعرفية البدائية للإنسان على الرّغم من أن البعض قد " بذل جهدا لكي يتوصل إلى تفسير عقلي للأساطير من خلال إزاحة العناصر الخيالية الكامنة فيها ، وحاول البعض اكتشاف حقائق روحية ومثالية وأخلاقية إلى جانب الحقائق المادية في الأساطير ، وعمد آخرون إلى إسقاط تفسيراتهم المعاصرة عليها وإعطاءها مضامين وأفكار لم تعبر عنها الأسطورة صراحة"[3] ، أما التفسيرات الوجودية فقد رأت في الأساطير المحاولات الأولى التي لمس فيها الإنسان الطريق نحو العثور على الهوية و" بالتالي فالأسطورة كانت تعبر عن تلك المحاولات الفكرية التي بذلها الإنسان في سياق بحثه عن هويته وعن تفسير معنى وجوده بالذات والأسطورة تعبر عن ظاهرة تنتمي إلى فترة ما من الثقافة البشرية "[4]

لذلك نشعر في طريقة عرض ارنست كاسيرر للأشكال الرمزية أنه قد بدأ بالأسطورة بإعتبارها تمثل الإنسان في أول عهده بالحضارة على غرار فلاسفة عصر الأنوار الذين رأوا فيه عصر العقل لا غير . لذلك فقد أعلن العصر الرومانسي ثورته على النظرية الفلسفية التي كان يستند إليها عصر التنوير وكانت خلاصة هذه النظرية كما رأى كولنجوود "تتمثل في ان بعض ألوان النشاط العقلي تعد تعبيرا عن حالة البداوة الأولى التي تفنى متى نضجت العقلية الإنسانية "[5] إذ يؤكد فيكو أن الشعر يمثل الأسلوب الطبيعي الذي لجأ إليه الإنسان البدائي أو العقلية البدائية للتعبير عن نفسها ومن هنا كان أسمى أنواع الشعر هو ذلك الشعر الذي ظهر في العصور الوسطى أو عصور الطفولة كشعر هوميروس ودانتي ولكن ما أن تتطور البشرية حتى نجد العقل يسيطر على الخيال والعاطفة ومن هنا يتم استبدال النثر بالشعر

وفي المرحلة المتوسطة بين الأسلوب الشعري أو الخيالي الخالص الذي يصور به الإنسان تجاربه لنفسه والأسلوب النثري أو العقلي الخالص وضع فيكو " مرحلة ثالثة هي مرحلة الإعتماد على الأساطير أو المرحلة النصف تخيّلية وهي مرحلة التطور التي تضفي على الثقافة كلها تفسيرا دينيا ، وعلى هذا الأساس ذهب فيكو

للقول بأن "الفن والدين والفلسفة هما الأساليب الثلاثة التي عبر بها الإنسان عن ثقافته و كل مرحلة تلغي المرحلة التي سبقتها" [6]

لكن أصبح العقل يمثل قمة في التطور الإنساني لاسيما في عصر التنوير إذ أصبحت النظرة للعصور الماضية وعلى رأسها العصور الوسطى تقوم على أساس" كونها عصورا بربرية وحشية مرت بها الإنسانية في فترة تخبطها بمعزل عن العقل"[7]

وهذا ما جعل كاسيرر يقرّر أن القرن الثامن عشر قرن مضاد للتاريخ إذ قطع نفسه عما كان وعما هو كائن ، وأيقن بقدرته على أن يضع مكانه شيئا أكثر أخلاقية وأكثر اتفاقا مع العقل ، وبهذا الإعتقاد كان شعور عصر التنوير بأنه مبدع إلى حد أنه لم يستطع فهم الإبداعات الأصيلة حتى إذ ما جاء التيار الرومانسي وجدنا تلك الصورة العامة التي اتخذها عصر التنوير تأخذ بعدا جديدا ، ومن ثم أصبح هناك شعورا بروح العطف اتجاه تلك تلك العصور التي اعتبرها عصر التنوير همجية ووحشية

لعل هذا بالذات ماجعل ارنست كاسيرر" لم يقبل ذلك الحكم الذي توارد عليه فلاسفة الأنوار حيث نظروا إلى عصرهم على أنه عصر العقل فقط فراح كاسيرر يحاول الكشف عن بعض الجوانب الأخرى التي غفل رواد عصر الأنوار عن رؤيتها، ونقصد بهذا الكشف عن مكانة الشعور وتحرر كل من الدين والفن في الميدان العقلي وتبعيتهما للميدان الشعوري "[8] هذا ما يحيلنا بحق للسؤال الذي انطرح بشدة في عصر الأنوار حول مسألة الطبيعة الإنسانية وحقيقتها والجدل الذي كان قائما بين العقل والشعور وفكرة الخير والشر من أجل البحث عن سبل لإعداد الفرد و بناء مجتمع يسوده العدل والمساواة

كان هذا بالفعل ماعبّرت عنه فلسفة الفيلسوف جون جاك روسو آنذاك (عصر الأنوار) من خلال أهم مؤلفاته" أصل التفاوت بين البشر" و مؤلفه الشهير" إميل أوفي التربية" و" العقد الاجتماعي" لذلك فقد خصّ ارنست كاسيرر هذا الفيلسوف بمقال في أيطار دراسته للشخصيات التاريخية تحت عنوان: *Le problème de jean- jacques Rousseau*، جون جاك روسو فيلسوف الأنوار الذي يؤمن بالشعور والعاطفة في عصر لا يؤمن إلا بالعقل والذي أعاد النظر في مسألة الطبيعة البشرية بصفة أن الإنسان طيب بالفطرة وهذه النظرة الجديدة جعلته يعتبر أبا للرومانسية في القرن الثامن عشر.

لقد انتقص عصر الأنوار من شأن الأسطورة وعدّها بمثابة الشيء البربري والغريب لكن جون جاك روسو من خلال نظريته في التربية التي ركّزت على أن الطفل يتمتع" بحياة مستقلة يحياها لها مثلها العليا وأفكارها ومن ثم فلابد للمدرس أن يفهم هذه الحياة والعطف عليها و احترامها ومساعدتها على التطور بالأساليب الطبيعية"[9] ،فكان لهذه النظرية أكبر أثر في النظر للعصور الماضية بعين العطف وتعبيرا عن جهود إنسانية لمرحلة من مراحل التطور الإرتقائي للإنسانية وكان من نتيجة هذه الرؤية الجديدة أن اتخذ الاهتمام بالأشكال التعبيرية الأولى للحضارة الإنسانية من لغة إلى أسطورة طريقه إلى مفكري العصر الرومانسي

ولاشك أن الأسطورة وثيقة الصلة بالإنسان، وهي ترتبط بنزعات وأهواء وميول طفولتنا البشرية "، ففي الأسطورة تتمثل الصورة الأولى التي تشكلت عن طريق مخيلاتنا وأحلام طفولتنا وذكريات شبابنا وبالتالي ليس بمقدورنا أن نتجاهل الأسطورة ، فهي في حقيقة الأمر تقدم لنا ذلك السجل العظيم لضمير البشرية" [10]

ولهذا فقد نظر كاسيرر بنفس نظرة روسو للإنسانية أي نظرة شاملة بعصورها وانجازاتها معتبرا أن فطرة الإنسان أوسع من دائرة العقل الخالص ومكانة الفن في مضمار الحضارة البشرية ترجع إلى كونه لغة من اللغات الرّمزية العديدة التي حاول الإنسان اصطناعها في فهمه للعالم .

لقد اعتمد ارنست كاسيرر في فهمه لرسو على كانط ،" بل قرأ روسو من خلال رؤية كانط له ، ففي نظر كاسيرر أن كانط هو أحسن من قرأ روسو في القرن الثامن عشر وفسّر حقيقة فكره حينما أوضح "أنه لم يكن فيلسوف الإندفاع والشعور فحسب وإنما الفيلسوف الذي نادى بضرورة الرجوع للطبيعة الإنسانية لكشف قواها وقدراتها وإمكانياتها على الخلق"، [11] لقد كان كانط يتناول" مايظهر من مؤلفات روسو خاصة" **إميل أوفي التربية**" و "**هلويز الجديد**" و كذلك ما يصل إلى علمه من اكتشاف في الطبيعة وكان يقدّر هذا كله ويعود إلى معرفته بالطبيعة والقيمة الأخلاقية للإنسان حيث كانت علوم الإنسان والشعوب والطبيعة والتاريخ الطبيعي هي الينابيع التي يروي منها محاضراته وحديثه"[12]

يرى كاسيير أن الكثيرون قد أخطئوا في فهم روسو فكان بالنسبة لهم مجرد مفكر رومانسي ينادي بالعودة إلى المجتمع البدائى الوحشى ، والواقع أن روسو قد صرح بوضوح بأنه يبدأ من حالة مجتمع إنساني لم يعد موجودا وربما لم يسبق له أن كان موجودا ، كما أنه من المحتمل عدم وجوده في المستقبل ، و إنما هو" يقدم لنا مثل هذا المجتمع حتى يمكننا من الحكم حكما صحيحا على حالة مجتمعنا الراهن فروسو كما لاحظ كانط لم يستهدف العودة مرة أخرى إلى حالة المجتمع البدائي أو الحالة الطبيعية الأولى للجنس البشري بقدر ما كان يهدف إلى الكشف عن عيوب ونقائص المجتمع الراهن ،

ذلك المجتمع الذي أهمل في نظره وطمس حقيقة الطبيعة الإنسانية"[13] ، ومن هنا استطاع كانط أن يضفي على فلسفة روسو تفسيرا عقلانيا لم ينتبه إليه أحد في ذلك الوقت.

وإذ كان روسو هو مكتشف الطبيعة الإنسانية وهو الذي نادى بضرورة الاهتمام بقواها وقدراتها وإمكانياتها على الخلق فإن كانط هو المفسر لقدرة هذه الطبيعة على الخلق والحرية و إذ كان روسو قد بدأ من الإنسان الطبيعي فإن كانط قد بدأ من مرحلة الإنسان المتمدن الذي بلغ ذروة التقدم في العلوم والرياضيات

ويتضح لنا" ان كاسيرر في دراسته لروسو قد طبق أيضا فكرته عن الاستقطاب فأصبح روسو ليس هو المفكر الرومانسي فحسب بل أيضا الفيلسوف العقلي "[14]

كان ذلك كله في سبيل الحديث عن تأثير نظرة روسو الجديدة على بعض فلاسفة التنوير مثل كانط وتأثر ارنست كاسيرر الذي يعتبر أهم الكانطيين الجدد أو الكانطية المحدثة

لكننا اذ عدنا لكتاب جون جاك روسو "**خطاب في أصل التفاوت بين الناس**" حينما تساءل قائلا "يصعب على أن أفهم كيف أننا في عصر يفاخر بالعلم ، ولا نجد رجلين يضحي أولهما بجزء من ثروته والآخر بقدر من وقته للقيام برحلة تاريخية حو العالم لا لدراسة النباتات والأشياء بل لدراسة **الناس والعادات والتقاليد**"[15] متسائلا حول ماهية العلاقات بين الشعوب على اختلافها وحول مدى معرفة الغرب بهذه الشعوب التي لا يعرفون عنها سوى أسماءها لأدركنا فعلا أن فلسفة جون جاك روسو قد أحرزت نفوذا واهتماما بالغا من قبل المفكرين والفلاسفة حيث أن هذا التساؤل بالذات هو ما جعل **كلو دلفي ستروس** من خلال كتابه "مداريات حزينة " يقرر بأن جون جاك روسو " لم يتنبأ **بعلم الإنسان** فحسب بل أنشأه فعلا وهذا من خلال خطابه في أصل التفاوت بين البشر والذي صور فيه العلاقة بين الطبيعة والثقافة ولهذا فإنه يعتبر أول بحث في الأنتروبولوجيا "[16] .

يمكن القول أن روسو أنشأ هذا العلم من خلال خطابة أصل التفاوت بين الناس الذي "صور فيه العلاقة بين الطبيعة والثقافة ولعله يكون أول بحث كتب في الأنتروبولوجيا العامة"[17] وقد قام هذا العلم نظريا عندما وضع روسو وبدقة عالية أهداف عالم الإنسان وميزه عن أهداف الأخلاق وذلك بقوله " حين نريد أن ندرس البشر علينا أن ننظر بالقرب منا ، لكن لكي ندرس الإنسان علينا أن نوجه النظر على بعيد ، علينا أن نبحث عن الفوارق لكي نكتشف الخصائص والمزايا "[18] ولعل هذا هو المبدأ الأساسي لعلم الأعراف البشرية أو ما يعرف بعلم الأنتروبولوجيا عند كلود ليفي ستروس.

الهوامش:

1. ابراهيم زكريا " دراسات جمالية ، فلسفة الفن في الفكر المعاصر " دار مصر للطباعة ،دط ، دت ، مصر ، ص 276
2. المرجع نفسه ، ص 277
3. الخطيب محمد ، " الفكر الإغريقي " ، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة ، ط1 ، 1999 ، دمشق ، سوريا ، ص 11
4. المرجع نفسه ، ص 12
5. ر.ج. كولنجوود، "فكرة التاريخ"، ترجمة محمد بكير خليل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة–مصر، 1961.ص 89
6. الجزيري مجدي ، "الفن والمعرفة الجميلة عند كاسيرر"،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، دط،2002 الإسكندرية مصر ، ،ص 47
7. ر.ج. كولنجوود،المرجع نفسه ،ص96
8. الجزيري مجدي ، مرجع سابق ص 127
9. الجزيري مجدي ،المرجع نفسه ،ص 48
10. الجزيري مجدي ،المرجع نفسه ،ص 49
11. ابراهيم زكريا " دراسات جمالية ، فلسفة الفن في الفكر المعاصر " دار مصر للطباعة ،دط ، دت ،ص 276
12. كانط ايمانويل ،"نقد ملكة الحكم"، ترجمة غانم هنا ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 1 2005، بيروت لبنان ، ص 19
13. الجزيري مجدي ،المرجع نفسه ،ص128
14. الجزيري مجدي ،المرجع نفسه ،ص 129
15. روسو **جون جاك، "أصل التفاوت بين الناس"، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، دط، 1972 ، بيروت–لبنان ، ص 125**
16. ليفي شتراوس كلود ، "مداريات حزينة ،ت محمد صبح ، دار كنعان للطباعة والنشر والإعلام دت ، ط1 ،دمشق ،ص 14
17. يوسف عيدان عقيل ،"التنوير في الإنسان "، الدار العربية للعلوم ناشرون ،ط1 ، 2009 بيوت لبنان ، ص 89
18. كليمان كاترين ، "كلود ليفي ستروس" ، ت محمد على مقلد ، دار الكتاب الجديد المتحدة ،ط1 ،بيروت ،لبنان ، ص95